سردية الصحراء
"في رواية " الشرخ سأسر بأمري لخلاني الفصول
لإبراهيم الكوني

الباحثة نورة الصديق
المملكة المغربية

الملخص:

تقوم بعض الأعمال الروائية على عالم ويُعد الروائي الليبي إبراهيم الكوني من بين الروائيين الذين اتخذوا الصحراء مسرحًا لبناء عوالم أعمالهم الروائية، وجعلوها وطنا وملاذًا لأبطاله وشخصياته، بما فيها من ندرة وقسوة وخطر، وانفتاحه على الأعراف والأساطير والمعتقدات، وخصوصية مجتمعها وسحر حكاياتها وفتنة أساطيرها وثراء موروثها الثقافي وقيمها وعاداتها وأعرافها وأنماط عيشها الصحراوي، إذ اعتمد في روايته "الشرخ سأسِرّ بأمري لخلاني الفصول" على الصحراء مكانًا، كليًا وجزئيًا، وعمل على استيحاء خصائصها وتجلياتها المختلفة كسرد بعض أساطيرها والخرافات المرتبطة بقيم الخير والشر وبيان البعد الاجتماعي الذي عاشته شخصيات الرواية وتأثيرها بانفعالاتها النفسية أمام ماهية المصير المظلم، وارتأى هذا البحث ولوج فضاء الرواية للوقوف على مدى حضور الصحراء وامتداداتها السردية والحكائية والدلالية فيها، وإبراز أثرها وصورها وتجليات بيئتها. وخلص البحث إلى أنّ الروائي إبراهيم الكوني اتخذ من الصحراء مسرحًا لأحداث روايته مستقرئا فيها الواقع الصحراوي ومترجما كل الانكسارات النفسية والاجتماعية فنيًا. و وصَفها بصفات سلبية كالوحشة والجدب والفتنة والفراغ والخباء والخواء بسبب الحالة النفسية المتأزمة التي تمر بها الشخصيات مثل الخوف والرعب والصمت والاغتراب والانكسار في عالم متشظ مشروخ. كما جعلها مكانًا منتعشًا بالرمزية من خلال نسج حياة الإنسان الصحراوي بهدف حقيق التواصل بين الأجيال وتوثيق الإرث الصحراوي الثقافي ورصد القيم الثقافية والمعرفية في المجتمع الصحراوي، وتصوير الموروث الشعبي فيها، ليصبح الكاتب إبراهيم الكوني صوتًا روائيًا عربيًا يصوغ إبداعه الروائي من معين ثقافة الصحراء.

الكلمات المفتاح: السردية، الصحراء، فضاء، الشرخ، الوطن...

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

Abstract

Some novels are based on a specific world, and the Libyan novelist Ibrahim al-Koni is among those writers who have chosen the desert as a stage to build the worlds of their novels, making it a home and refuge for his heroes and characters, with all its scarcity, harshness, danger, as well as its openness to customs, myths, and beliefs, the uniqueness of its society, the magic of its stories, the allure of its legends, and the richness of its cultural heritage, values, customs, traditions, and desert lifestyles. In his novel 'The Rift, I Will Keep My Secret to Myself,' he relied on the desert as a setting, both entirely and partially, and worked on drawing inspiration from its characteristics and various manifestations, such as narrating some of its legends and myths related to the values of good and evil, and showing the social dimension experienced by the novel's characters and its impact on their psychological reactions to the nature of the dark fate. This study decided to explore the space of the novel to examine the extent of the desert's presence and its narrative, storytelling, and semantic extensions therein, highlighting its effect, images, and environmental manifestations. The research concluded that the novelist Ibrahim al-Koni chose the desert as the setting for his novel, observing the desert reality and artistically translating all psychological and social fractures. He described it with negative traits such as loneliness, barrenness, temptation, emptiness, cunning, and void due to the psychological crises experienced by the characters, such as fear, terror, silence, alienation, and breakdown in a fragmented and shattered world. He also made it a place rich in symbolism by weaving the life of the desert dweller, aiming for genuine communication between generations, documenting the Saharan cultural heritage, and observing cultural and intellectual values in the Saharan society, while depicting its folk heritage, making the writer Ibrahim Al-Koni an Arab novelist whose storytelling is shaped by the culture of the desert.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ظلت الصحراء حاضرة في الأدب العربي منذ العصر الجاهلي، وظلت منبعًا يستمد منه الشعراء صورهم وموضوعاتهم حتى خاضت عالم الرواية، ولم يقتصر القص والحكي على فضاء المدينة والقرية، بل تجاوزه إلى فضاء الصحراء الذي احتل مساحة شاسعة من المتون السردية الروائية، بوصفها فضاء حافلا بالسحر والغرابة والشساعة والفراغ، وحابلا بالتراث والأساطير والخوف والرهبة، صنع فواجع الإنسان ومواجعه، ورماه في براثن الحزن والموت والدمار، مما جعل الصحراء تستقطب مجموعة من الروائيين وتفتح ذراعيها لاحتضانهم، فأبدعوا أعمالًا روائية اتخذوا منها مسرحًا لبناء عوالم أعمالهم مثل عبد الرحمن منيف، غسان كنفاني، محمد سالم الشرقاوي، إبراهيم السعدي، والروائي الليبي إبراهيم الكوني الذي تقوم بعض أعماله الروائية على عالم الصحراء بما فيه من ندرة وقسوة وانفتاحه على الأعراف والأساطير والمعتقدات، وتكمن أهميته في العلاقة التي تربط الإنسان بالمجال الصحراوي وعالمه الواسع المعقد، ألّف في الرواية والدراسات الأدبية والنقدية والتاريخ، نال جائزة الدولة الاستثنائية الكبرى التي تمنحها الحكومة السويسرية عن مجمل أعماله المترجمة إلى الألمانية، وفاز بجائزة الشيخ زايد للكتاب فرع الآداب في دورتها الثانية2007. 2008، من رواياته: نزيف الحجر (1990)، التبر (1999)، المجوس، الفزاعة... حيث جعل الصحراء وطنا وملاذًا لأبطاله وشخصياته، بحثا عن ذويهم وعن أمنهم، وتحقيق ذواتهم، إذ انصب تفكيره على استيحاء خصائصها في بعض رواياته في تجلياتها المختلفة، وهذا نابع من مرجعية ذاتية ومعرفية متعددة الأبعاد وخصوصية مجتمعها وسحر حكاياتها وفتنة أساطيرها وثراء موروثها الثقافي وقيمها وعاداتها وأعرافها وأنماط عيشها الصحراوي، وهذا ما دفعنا إلى قراءة روايته "الشرخ سأسِرّ بأمري لخلاني الفصول"، الجزء الأول، للإجابة عن الإشكالية التالية: ماهي تجليات الصحراء في رواية إبراهيم الكوني؟ وما هي رؤيته للصحراء كفضاء تنمو فيه أحداث روايته؟ وما هي صورها؟

تتميز الرواية بثراء دلالي وتخييلي حول الصحراء وبتعدد مداخل مقاربتها، وارتأت هذه المقالة ولوج فضائها للوقوف على مدى حضور الصحراء وامتداداتها السردية والحكائية والدلالية فيها. وإبراز أثر الصحراء وصورها وتجليات هذه البيئة التي اقتحمت العالم الروائي، وستتخذ الدراسة المنهج الوصفي التحليلي لبلوغ هذا الإنسان، مستعينة بالمنهج النفسي والاجتماعي في مباحث هذه المقاربة التحليلية للرواية.

1 . الصحراء فضاء روائي

أقبل مجموعة من الروائيين على اتخاذ الصحراء فضاءًا مكانيا لسرد أحداث رواياتهم بوصفها "مادة خصبة لمتنها الحكائي"[1] فالصحراء ظاهرة عربية مسكوت عنها، وعن بيئة تكاد تنعدم فيها مقومات الحياة الطبيعية التي يطمح إليها الإنسان، يترجم فيها الكاتب واقعه المعيش على المستوى النفسي والاجتماعي والاقتصادي والفكري، لكونها مكانًا وثقافة عند البعض، يقطنون بها كما يقطن السكان بالمدينة، يمارسون أنشطتهم ويزاولون أعرافهم... كلها تنعكس في الفن الروائي، بوصفها مكانًا مرتبطًا بهوية فكرية اجتماعية لمجتمع صحراوي، وبثراء ميراثها الأسطوري وطقوسها الاجتماعية العربية وعوالمها المختلفة، وقد أثبت بعض الباحثين حضورها وفاعليتها في الأدب العربي "بسبب ما تتمتع به من خصوصية عربية وخصوصية مشهدية بالإضافة إلى أنّها مكان مفتوح يبدو بلا نهاية ويبدو غير قابل لمطلقية الإحاطة وضبط التخوم، متحرّك ومتنامٍ بتنامي الأحداث والشخصيات، يشكّل وفق الرؤى، ويستطيع الإسهام في تشكيل الشخصيات والشر والرؤى على حد سواء"[2]، ليساهم الأدباء في حركية روائية لما تشكله الصحراء في العالم العربي من إنسانية وتاريخية وسياسية وجغرافية وثقافية ورمزية. وهي فضاء ينبض بالحركة باعتبارها "المكان ليس بمثابة الوعاء أو الإطار العرضي التكميلي، بل إن علاقته بالإنسان علاقة جوهرية تلزم ذلك الإنسان وكيانه"[3]، إذ وجدت الرواية العربية ضالتها في

---

[1] حميد لحميداني، بنية النص السردي من منظور نقدي، المركز الثقافي العربي، ط3، 2000، ص21.

[2] صلاح صالح، قضايا المكان الروائي في الأدب المعاصر، دار شرقيات، القاهرة، ط1، 1997، ص 46.

[3] BACHLARD Gastone, la terre et les rêveries de la volanté, Paris , José Corti,2004 , p 67

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الصحراء واستثمروها بما يمتلكونه من حس إبداعي أصيل، إذ "كانت الرواية العربية التي اعتمدت الصحراء مكانًا، كليًا وجزئيًا، في طليعة الروايات العربية المتقدمة فنيًا والأكثر تمثيلًا لما يصبو إليه الروائيون والقراء العرب من إيجاد رواية عربية خالصة شكلا ومحتوى، واستطاع بعضها أن يحتضن النوى الضرورية لإنجاز خصوصيتها القومية، وينضم إلى البنيات الأولى في تحقيق نظريتها المرجوة"[1]، فالصحراء لا تنضب من الرموز لأنها "فضاء مليء بالرموز التي تولد رؤى فكرية خاصة بها، مما يعطي نصوصا روائية متميزة ومتخمة بالدلالات"[2]، كما تتميز رواية الصحراء بخصوصيتها الفنية والاجتماعية والثقافية ذات حمولات ثقافية ومرجعيات فكرية ورصيد أسطوري وتراثي، أسهم في بزوغ إنتاج روائي يحمل خصوصيات هذه البيئة الصحراوية، ذلك أن "أدب الصحراء يختلف عن أدب المدينة وأدب الريف يمتاز عن أدب المدينة كما يمتاز عن أدب المدينة كما يمتاز عن أدب الصحراء بما يملكه كل منها من خصوصيات حتى تبقى حضور البيئة الطبيعة في إنتاج النصوص الأدبية أمرًا يرفع من مستوى العمل الفني والإبداعي لأنه يجري بمعزل عن مجتمع المبدع وبيئته"[3]

1. ملخص رواية "الشرخ سأسِرُّ بأمري لخلاني الفصول"

ينطلق الروائي إبراهيم الكوني في رحاب الصحراء في روايته يسبح في ملكوتها، وتتآلف بوحداتها مع عوالم الأساطير، يتفجر بذهنه المتقد لكشف عوالم الصحراء، بفضل المعرفة الزخمة والحكمة السديدة التي ينضح بها لأنه ابن بيئته، ابن الصحراء، ملهمته، حاضنته، التقم الوصية من ثديها، وألِف رحابها وأرجاءها، ينسج واقعها بخياله المفعم بخواطره، يحبك ملحمة منبثقة من الخلاء البعيد الذي يضج بأبعاد الصحراء وعاداتها.

تتخذ الرواية من الصحراء مكانًا ذا أهمية لسرد بعض أساطيرها وبيان البعد الاجتماعي الذي عاشته شخصيات الرواية، تتحدث عن الأسطورة من خلال استدعاء شخوص أسطورية (إله المطر "هرو"، آمناي، أفانماي...) وسِيَر الجن وصراعهم مع الإنسان، وزيارة البطل لبلاد الجن وتيهه في الصحراء ليقرر الموت دون معرفة الطريقة التي بها يهتدي إلى العراف ليدله على الطريق...

تتألف الرواية من فصلين، فصل بعنوان "ريح الربيع (أمناي)" تنقل أحداثه إلى عالم الحكي المتخيل تبدأ بأشجان يبثها البطل إلى إلهه آمناي، ويقوم السرد فيه على استرجاع بعض القصص والأساطير من خلال استبطان الذاكرة والأماكن والشخوص في الصحراء واسترجاع شروخ الآلام والجراح التي شهدتها هذه البيئة، وهذا ما حقق له السلام الداخلي والاستقرار النفسي. إذ يسرد قصصًا عن الشخصيات "أفانمان" وأمه وقرينه أمناي وجاراته، يحكي الواقع اليومي لهم وبعض مراحل حياتهم ومغامراتهم، كفقد آمناي لشقه، وسقوطه فريسة المرض وإنعاشه الداء لمدة، واحتضاره لتهرع به الأم إلى الضريح ليتشافى.

وفي الفصل الثاني بعنوان "قمر الصيف (أيور)" ارتبط الوعي بالحاضر بفضاء الصحراء، واقترن بمحيطه، فبعد لحظات البوح وسبر أغوار الذاكرة والغوص في أعماقها ينتقل البطل إلى سرد حواراته الداخلية مع شقه الأيمن يضيع منه ويعود ويفقدان السبيل معًا، ويحكي بعض القصص معه في الصحراء ووصف حالة فراره وتسكعه وملاقاته للأمَة التي ذهبت لجلب الحطب من الأودية الغريبة... ويمضي الراوي/ البطل مع رسول الجنوب "آمناي" يبثه أشجانه ويفضي إليه بأسراره ويبوح له بخواطره، ويخط شرخًا على صفحات الزمان، بتآلف وحدته مع عالم الأساطير بوصفه ابن الصحراء الذي التقم والوصية من ثديها ينطلق في رحابة تلك الصحراء في كينونته

---

[1] بليلي حديد وعواطف صالح، رمزية المكان الصحراوي في الرواية العربية، مجلة إشكالات في اللغة والأدب، مج 9، ع5، 2020، ص368.

[2] تحريشي محمد، النص والنصية في الرواية الصحراوية، بوابة وراء السراب.. قليلا" لإبراهيم البرغوثي، دار الثقافة للنشر والتوزيع، المنستير، تونس، ط1، 2014، ص29.

[3] تحريشتي محمد، النص والنصية، ص 18.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

التي تعد ملهمته يتفجر فيها الخيال المفعم ساحرًا، ويتقد ذهنًا براقًا. ويتحدث عن الناس في الصحراء وعن أحوالهم ومطاردتهم لنواميس عديدة كما يسميها منها ناموس القدر، ناموس التمائم، ننوس السلالة، ناموس الغول (العقل)، ناموس المرأة، ناموس الأنثى، ناموس الحية...

2 . تجليات الصحراء في الرواية

تبدو الصحراء في الرواية مجللة بجدبها وقسوتها وجفافها وكثبانها ونخيلها، مع ذكر جانبها الجمالي خاصة عند مجيء الليل وإسدال الظلام غطاءه، وعند استقرار البدر في العلياء، يصف الكاتب كيف يقضي الناس لياليهم في هذا الفضاء القاتم، حيث "يأتي دور الرواة والشعراء في دائرة الجوار، يروي أهل الخبر السير بالكلم الملحون، يسردون نبأ الجدب، وكفاح السلف لإنقاذ حبات البذار من التلف، وينوحون بأشعار عن الزمان الذي يعم فيه البلاء دهورًا، يحترق العشب، ويبيد جذر العشب، وتهجم جيوش النمل كجند الجن لتستولي على حب البذور، تجره إلى دهاليزها السفلية في صفوف كصفوف الغزاة"[1].

وفي تزامن مع ذلك، في إطار وصفه للصحراء عمل الكاتب على تصوير جانبها السلبي في سلسلة من الدلالات مثل الفقر والجدب والضياع، ويبرز حالات الإحساس والمشاعر النفسية للشخصيات ولأهل الصحراء خاصة عندما تتحلق النساء "وتجر المغنيات الوتر المزموم على الوتر المزموم، فتتوجع الصحراء كلها بالنواح، وتنطلق من الصدور أنات الوجع والعشق والحنين، ويرثي القوم في مدخل الجدباء لعنة الجدب طويلا، وينتهون في المأتم إلى يقين، يقول إن بذرة نبيلة قد انقطعت من وطن الصحراء إلى الأبد"[2]. لكونها عالمًا قاسيًا موحشًا ينفتح على الخواء والجدب بكل أنواعه. ويمنح الكاتب للقارئ صورة أخرى عن الصحراء بوصفها مجالًا غنيًا بغطاء نباتي متنوع يُعدّ سِر الإنسان الصحراوي، إذ أنّ "كل سلالة تنقطع في عشيرة النبات لابد أن تستجيب السلالة القرينة التي تقابلها في عشيرة الإنس، ولا يولد الإنسان من جوف أمه الصحراء إذا لم يسبقه ميلاد لعاع نبات كان له سرًا وقرينًا خفيًا"[3].

ويصف الكاتب سبل الصحراء وتأثيرها بالانفعالات النفسية أمام ماهية المصير المظلم للراوي الذي يترجم نفسيته المكتئبة وسط فراغ الصحراء والتي تتغير حسب تقلبات الليل والنهار، يقول السارد:" عندما استيقظت وجدت الماء قد تبدل، ليس الماء وحده الذي تبدل، ولكن الصحراء كلها تبدلت، اكتأب الفراغ، وتنفس الجلاء بهبوب مبلل بعطر الغيث، فاستولى على الصحراء ذهول الانتظار، انتظار المخاض الذي لم يخطر على بال.. "[4]، ويصف كذلك فصولها وصفًا تفصيليًا، إذ تتغير الصحراء باقتحام الفصول لفضائها خاصة فصل الخريف الذي يقتحم صيفها ويغزو السماوات قبل حلول ميعاد الأقدار، قد تتبدل وتنفلت ويخابلها الخفاء ويوسم الآفاق بالإيماء قبل غزو الغيث من قبل إله المطر "هرو"، يقول السارد وهو تغمره الدهشة "في أطراف الصحراء الشمالية تركد الأهوية، وتكف رياح الجنوب، فتنقطع البلبلة، ويتسلط السكون، فتجسس الخافية على البادية، وتستكشف البادية نوايا الخافية... تستسلم الكائنات لوجوم الغموض أياما، قبل أن يتململ ريح الشمال، ويتنفس بحياء العذارى، ويهب في جشأة الفر باردًا، واعدًا، بليلاً، مغسولًا بمياه البحار الشمالية البعيدة لتتنزل الصحراء الملفوفة بالسكون بقعقعات الرعود، وتنعم برذاذ بخيلا يبلغ للصحراء أرضًا... وترتوي لتحيي المخلوقات..."[5]

---

[1] إبراهيم الكوني، الشرخ سأسِرّ بأمري لخلاني الفصول"، الجزء الأول، دار النهار للنشر، بيروت، ط1، 1999، ص 38
[2] نفسه، ص 40
[3] نفسه، ص 39
[4] نفسه، ص 173
[5] نفسه، ص 198

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

وعند حضور مفردة الصحراء يحشر الماء، لتتضاعف معاناة أهلها وتتبلور آلامهم في توفير الماء والطعام، إذ بوجودهما يستقر الإنسان ويستمر بقاؤه، وبانعدامهما تدمر حياته ويموت، لأن الصحراء قاسية بطبيعتها وطقوسها، فقيرة بإنتاجها، يركض في الصحراء مسافات من أجل الماء والغداء ليكفي حاجاته الأساسية لكون الحياة بلا ماء معناها الفناء والموت، تقول: "يفر الماء من المستنقعات التي خلفتها سيول فصل الشتاء الذي انقضى، تتيبّس القيعان، ويتكور الطين، تتبخر الرطوبات من كرات العلقم التي تتمدد في الأحاضيض بحثًا عن ملاذ تستجير به من طغيان الحريق، تتبدد حبات الكمأ التي أطلت برأسها في رحلة الخروج، فيتزامن ميعاد الخروج مع طقس الجنون المقدس، فذبلت، وتهرأت، وتهاوت، واندثرت، لتدفع ثمن الخروج،... العشب ذاب...والعلّيق فقد النداوة به مقاومة لم تدم طويلا..."[1]..

3 . الصحراء الوطن الحاضن

ينخرط الكاتب في العالم الصحراوي وفي البيئة الصامتة ليبين أصل البطل هوية وفكرًا ولغة، ذلك أن الصحراء وطنه وحاضنته، يقول السارد: "ألا ترى مولاي أمناي، أني التقمت الوصية من ثدي الصحراء، كما أبناء الصحراء؟"[2]، يصفها الكاتب للمتلقي بأسلوب وصفي مباشر على لسان الشخصية الرئيسية، وذلك حين أدرك "أن الصحراء قد تنفست خطرًا، والسكون الجليل يهدد بالبلبلة، والأركان ستتزلزل، أدركتُ أن سكون الصحراء حجة الكائن عندما يعجزه جلال الأمر عن الكلم... يومها آمنت....بأن الصحراء وطن لا يحتاج أهله إلى لسان ما دامت كائنات تتكلم بلا لسان"[3].

نقل الكاتب للمتلقي أنشطة الإنسان الصحراوي من خلال شخصية البطل في الصحراء الذي أثّر على صحته وهوانِ جسده عند رعيه الغنم والبعائر والإبل، يقول الراوي:" أنوي الانطلاق لأدرك بعائري التي اخبرني الرعاة انهم رأوها الرعاة تجتاز السهول الوسطى في السبيل إلى "تدرارت" جريًا وراء كل شحيح جاءت به كل سحابة عابرة، تعلم أن سباق الليل والنهار لم يرحمني، فرماني بالوهن وداء المفاصل وضعف البصر، ويلزمني وقت طويل حتى أدرك الإبل التي أعرف أنها ستلجأ إلى وديان "مساك صطفت"... ولا أدرك إلى ذلك سبيلا"[4]، ويصف مجموعة من المشاهد في الجمادات من الجبال والأشجار والأودية وأنواع من الحيوانات والطيور والدواب والغزلان، كما يصف بعض تمظهرات الثقافة الشعبية التي تطغى فيها المعتقدات والطقوس التي ورثها الصحراويون عن أجدادهم خاصة أهل النبوءة بتعاويذهم من الإله من جعل الأرض يبسًا، والذين يجتهدون حسب اعتقادهم "لوسم جلود الغزلان برموز السحرة، ويهرعون لدس هذه التمائم الفظيعة في أحافر القيعان، أو شقوق الصلد، أو شعاف الأخبية، لتقييد حركة، مولاي ومنعه من الانطلاق"[5].

ويقدم الكاتب صورة أخرى للصحراء بوصفها مشفى يستفيد أهلها من نباتاتها ويستعملونها في وصفات شعبية لمعرفتهم الكبيرة بأسرار النبات الصحراوي والبحث عن العروق اليابسة والجذور والأغصان وأعشاش الطيور، إذ بعد بحثهم في شعاب الصحراء "يعودون بكنوزهم إلى البيوت ليجدّوا في صنع الأخلاط، يتمتمون بالتمائم...والبذار في سلالة النبات، يختارون من الكنوز أجناسا ليطبخوها في القدور... يتلون في سحب الأبخرة وصايا ورثوها عن أسلافهم الأولين...يمزجون مساحيق الأجناس بقدر واحتراس

---

1 نفسه، ص 73
2 نفسه، ص 17
3 نفسه، ص 21
4 نفسه، ص 18
5 نفسه، ص 19

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

ولهفة، يعبّرون عنها بتمتمات التمائم"[1]، كما يقدم لقطات مختلفة ومشاهد متنوعة يصف فيها قساوة الصحراء ومتاهتها التي من خلالها يعبّر الكاتب عن متاهة نفسية تعكسها أعماقه المتأزمة، من خلال ما جاء على لسان الأم التي أعلنت أن "الصحراء وطن قاس يقتنص من المعاندين بالتيه، ولا عاصم من هذا الذات إلا ترياق الوصية، فإياك أن تنحني في السبيل لتلتقط الحبال المنمنمة بالزخارف لأن أكثر الحيات سمًّا تتخفى في الأجسام التي تتراءى حبالا، وإياك أن تقترب من التيوس ليلا.."[2]. فرغم القساوة الصحراوية ترشده وتغدق عليه بوصايا عديدة مثل عدم الحديث مع المسافر عند حلول الغسق، إلا أنه لم يمثل لهذه الوصايا ويصاب بالمس والحمى، يقول الراوي: "جراح الصحراء ليس أسوأ ما في الصحراء، وبلايا الأيام ليست أرذل ما يصيب به النسيان"[3]. فالصحراء بمثابة متاهة يتيه البطل بين شعابها لينسى الوصايا وطلسم اسمه، ويأمر الإله أمه أن تزور الضريح، لأن كما جاء على لسان الجليس: "الأضرحة للأسلاف مرجع... الأضرحة تستطيع أن تعيدنا إلى قلوبنا، وتملأ أفئدتنا بالناموس المفقود"[4]. وفي نفس المشهد ينتقل الكاتب من أسلوب الوصف إلى حديث النفس الداخلي مشيرًا إلى أنّ الصحراء علمته أسرارًا عديدة حتى في حالات انقطاع النفس وانتشار الغبار واحتضار الهواء في الفراغ، لأن الصحراء "هي التي ربتني وأرضعتني وهدهدتني منذ كنت في المهد، هي التي علمتني سرًا كان ناموسًا احتكره أصحاب الكهانة"[5].

واعتمد في وصف الصحراء على الحوار بوصفه تقنية تبرز الغربة النفسية والجسدية لدى شخصية البطل، يجعل القارئ في مواجهة الصحراء بعالمه الصامت المخيف الذي يعيد الكاتب بناءه في بنيات الرواية وفي مخيلة القارئ من خلال القراءة وتفاعله مع النص الروائي كهدف يصبو إلى تحقيقه من أجل إيصال الدلالة المتوارية والمضمرة إلى ذهنه وتصوره عن فضاء الصحراء المحتضن لأفكاره وأحداثه وشخصياته. وتعدّ بمثابة الأم الكبرى بعد بطن الأم كما هي كذبة، كما تجلى ذلك في الحوار بين شخصية " أفانمان " مع إلى المطر "هرو" من خلاله يبرز الغربة النفسية والحالة الشعورية لدى شخصية البطل التي ينقلها الكاتب إلى إدراك القارئ يقول:

- "لكن الصحراء أمٌّ قاسية يا مولاي!
- الأم الحق هي التي تقسو .
- ولكن الصحراء شرك يا مولاي!
- الخروج أوله شرك وآخره شرك...
- ...ولكن...لكن الصحراء كذبة يا مولاي !
- كل امرئ جرا به الزمان، وخرج إلى وطن الخلاء كذبة... كلها كذبة لأننا آمنا بالخروج..."[6]

يمنح الكاتب صورة أخرى للقارئ عن الصحراء كمجال للسفر ينعم المسافر فيها بلذة السفر، ينال فيها فردوسيْن:" فردوس الأسفار الذي يخلص عشاق الأسفار من وزر الأوطان، وفردوس أوطان كفت عن أن تكون وزرا، فحصنت المسافر من أوجاع

---

[1] نفسه، ص 42
[2] نفسه، ص 46
[3] نفسه، ص 47
[4] نفسه، ص 48
[5] نفسه، ص 63
[6] نفسه، ص 93-94.

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

الحنين... الأسفار والحنين وأناشيد السجن ليست تمائم أهل الصحراء، ليست كلامًا على ألسن أبناء الصحراء قبل أن يجري الكلم على ألسنتهم، قبل أن يتجلجلوا بكلمة أم أو أب"[1]، هذه الأسفار مريبة تسمى في لغة أهل الخلاء كوابيس وهذيانًا وأضغاث أحلام.

ويستمد الكاتب بعض أحداث الرواية من العادات والتقاليد ذات الجذور البدائية المحلية والإفريقية التي تعتمد على الأساطير والخرافات المرتبطة بقيم الخير والشر كلها تتحكم في حركة السرد وتسهم في إبراز الشخصيات، كما تسهم فيها الأنثى بشكل كبير وبأدوار متعددة، إذ ترمز للخصب والحياة، وكنموذج على ذلك في الرواية في أم البطل، وهي نموذج كل أم عانت كثيرًا في الصحراء وتجرعت الآلام والرعب والأنين، يقول الراوي:" تتنادى خبايا البدن ، وتتآلف، وتتحالف، لتدفع الفيض لإرواء حقل الجنين، تدب في الخلوات، أو تتنقل بين الأخبية وهي تسرح في بسمات غموض، غموض موسوم بحزن... حزن المخلوق الذي عرف البلايا طويلا، وتجرّع مرارة اليأس مرارا...حان ميعاد الحمى فلم تستعن بالجارات، ولم تستدع قابلة القبيلة. خرجت برفقة الأمة إلى الوادي لاستجلاب الحطب فداهمها المخاض....تشبثت بطلسم المعلق في قلادة الجيد، عاندت الأوجاع من قبس الفرقان حتى حلول القيلولة. استحم البدن بالبلل والعصاب والحريق منذ جشأة الصبح المبكر.."[2]، وهذا يبرز رؤية الكاتب بأن فضاء الصحراء مرتبط بالأنثى، فهي النجمة التي تضيئه، والمصباح الذي يني ر قتامته وعتمته ، وتبث الأمل فيه وتنمو بحركيتها وتقضي على صمته وضجره ...

هذه الأم الحاضنة لشخصية البطل رغم قساوتها فهي تخاف عليه، تغدق عليه بوصايا وتمطر عليه بوابل تحذيرات لتجنب وحشة الخواء وخطر الخفاء، يقول السارد: "لا أصدق ما أراه بالعين منذ تعلمت من أمي الصحراء الوصية التي تكذب رؤيا عين لا ترى إلا ما جرت به البادية، ومنذ علمتني أمي الصحراء الوصية التب تحذر من كيد حية خرجت في أثر قاتل حاول ان يقتلها..."[3].

وظف الكاتب تقنيات الحوار والمونولوج الداخلي والسردية لتقديم الصحراء للقارئ لتكون مادة خصبة لباقي الأحداث المستمرة والتفاصيل الحسية بالانتماء إلى الصحراء والاستمتاع بهوائها وبهائها في عالمها القاحل الذي يسكنه الجدب والخواء.

4 . الصحراء موطن الخطر

ينقل الكاتب للقارئ الحالة النفسية والشعورية لشخصية البطل لإدراك ما يحسّه أهل الصحراء وما يعيشه في رقعتها الشاسعة وسكونها المهيب من الخطر الذي يهدده ، يقول البطل: "أدركت أن الصحراء قد تنفست خطرًا، والسكون الجليل يهدد بالبلبلة، والأركان ستتزلزل، أدركت أن سكون الصحراء حجة الكائن عندنا يعجزه جلال الأمر عن الكلم، ...يومها آمنت أن الصحراء وطن لا يحتاج وطنه إلى لسان، مادامت كائناته تتكلم بلا لسان"[4] ، هذا الصمت الذي تنزل حين حرق قلبه ليلة عقاب الطفل/ الراوي من طرف أبيه وجرّ أمه نحو الضريح بأنينها المؤلم للقلب، وهذا يشير إلى العنف الممارس على المرأة الصحراوية بكل أنواعه تحت سلطة الرجل، يقول السارد: "أخذني الوالد من يد الوالدة وربطني بحبل في رسغ الرجل، شد الحبل، دق الوتد بحجر في الأرض بضربتين، لكن الضربتين زعزعت سكوت الدنيا، صدر الأم ينطلق بحشرجة.. كانت تحاول الإفلات من الأب لترمي نفسها على جسدي... لكن أبي اعترضها بعناد بطولي، تحولت غمغمة الأم أنينًا مكتومًا، موجعًا حرق قلبي ليلتها"[5] .

---

[1] نفسه، ص 107
[2] نفسه، ص 82
[3] نفسه، ص 136
[4] نفسه، ص 22
[5] نفسه، ص 22

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

تشهد الصحراء كفضاء تراجيدي حلقات رعب وظلام، بِصمْتها تخيف الفرد وتزعزع كيانه ليعلن للآخر خطورة هذا الفضاء الصحراوي يقول السارد: "عاد يوشوش في صدري بالمكيدة التي أخفتها عني الصحراء في سكونها، عاد الصوت المزدوج، صوت الصمت عندما يتجاوز الصمت الحد، فيلهم عشاق السكون وعيدًا، ونبوءة، وروحي الخطر،...الخطر زعزعني وأصابني بالحمى، الخطر حوّلني ماردًا"[1].

وإذا كانت الصحراء قاحلة بلا ماء فهي تعادل الموت لأن الجدب والجفاف والفقر والجوع يؤدي إلى الهلاك، يعاني معها أهل القبيلة الذين "هرعوا إلى الخباء من جموع جليلة لأنّهم لم يروا فرقًا في يوم من الأيام بين الجدب الذي يصيب الصحراء، وبين الجدب الذي يصيب امرأة الصحراء"[2] ، هذا الفراغ والمتاهة التي يعبّر عنها الكاتب هي متاهة داخلية نفسية وخارجية في المحيط الذي يعيشون فيه، وضياع يعكس صورة الصحراء، ويشير السارد إلى أن الجدب "هو اللعنة التي استطربها أهل الخفاء لمدبر مكيدهم لإبادة أهل الخلاء لما انقطعت من الصحراء القبائل، ولما صارت الصحراء صحراء"[3] ، هذا الجدب يأتي من سطوع الشمس الحارقة والمضارب الخالية والجن والأخبية الموحشة وظلمات العراء ووطن الخفاء، لأنّ القوم "يخفون في أفواههم تميمة خطيرة اسمها العقل، ولا حيلة لتجنب البلاء إلا في التنازل عن هذه الأسلاب... واكتساب خصال أكثر أهل الخفاء نبلا وحكمة ودهاء"[4]. هذه الصحراء لشساعتها واتباع رقعتها تؤثث بالفراغ المخيف، يقول السارد: "وقعت في يد الفراغ، صار لي الفراغ ملجأ، فانتصب واقفًا، غصصت طرق جلبابي بأسناني وانطلقت جريا، ركضت حتى ابتلعني الخلاء"[5].

ويخيب الكاتب انتظار القارئ عندما يشير إلى أن الصحراء أصبحت ضحية للجن الذي يسكن هذا الفراغ ويراود سكانها ويتربص بهم ويسكنهم، يقول السارد: "اتخذ الصحراويون من بنات الجن قرينًا وجوار، واختفت حسناء القبائل الصحراوية، لتصبح في بلاد الخفاء قرينات سادة الجن وجواريهم "[6].

وتوقف السارد في وصفه للصحراء على الجانب السلبي، حيث يضج الفضاء بالعزلة المخيفة التي تنبض بالحنين للآخر من أجل اللقاء، لكنّ البطل يبرز خطورة هذه العزلة، عندما "هبت موجة جنونية جديدة شغلتني عن القوم، عن الأشباح، عن الدمى التي تتسكع فوق المرتفع، ألهمتني الغزوة لأنها كانت تقتلعني من السفح الصخري، غمرت بهجمة انتقامية فأعمتني بالأوحال، وأغرقتني بالأخلاط، ونبهتني بوجودي في فوهة الخطر،...هدأ الغزو فهدأتُ، وعدت أفتش عن الأغيار في السفح"[7]. يقف القارئ مصدوما عند قراءته لهذه الفقرات أمام تلك البشاعة والخطورة والوحشية التي يفرزها السرد عن الصحراء التي تعج بالمكبوتات والأغوار الصاخبة من خلال توظيف الكاتب لمعجم قاس صارخ بالفراغ والموت والمعاناة ولغة مجازية مكثفة أخفت لمسة جمالية فنية في الرواية.

---

[1] نفسه، ص 31
[2] نفسه، ص 37
[3] نفسه، ص 39
[4] نفسه، ص 104
[5] نفسه، ص 164
[6] نفسه، ص 167
[7] نفسه، ص 191

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/

5 . خاتمة

تتلخص النتائج التي تم التوصل إليها من خلال قراءة الرواية في ما يلي:

. اتخذ الروائي إبراهيم الكوني من الصحراء مسرحًا لأحداث روايته، يمارس من خلالها البطل الشخصية البوح لقرينه والبحث عن الأمان إلى جانب الشخصيات الأخرى رغم قساوتها وقفرها وتستقرئ الواقع الصحراوي وتترجم كل الانكسارات النفسية والاجتماعية فنيًا.

. وصَف الصحراء بصفات سلبية كالوحشة والجدب والفتنة والفراغ والخباء والخواء بسبب الحالة النفسية العصبية، والحالة المتأزمة التي تمر بها الشخصيات مثل الخوف والرعب والصمت والاغتراب والانكسار في عالم متشظ مشروخ.

. قدّم الصحراء للقارئ من خلال تقنيات الوصف المباشر، الحوار، المونولوج الداخلي، السرد، توافقت مع الشخصيات التي اختارها خاصة شخصية البطل الذي ساهم في تنامي الأحداث وسردها لإيصال نظرة شاملة حول العالم الصحراوي.

. جعل الصحراء مكانًا منتعشًا بالرمزية لينسج من خلال أحداث الرواية حياة الإنسان الصحراوي لتحقيق التواصل بين الأجيال وتوثيق الإرث الصحراوي في شتى الأشكال التعبيرية بما في ذلك الرواية والأسطورة والمعتقدات والطقوس والأعراف والتصورات ليؤرخ بذلك لأساطير الصحراء، ويرصد القيم الثقافية والمعرفية في المجتمع الصحراوي، وتصوير الموروث الشعبي فيها، ليصبح الكاتب إبراهيم الكوني صوتًا روائيًا عربيًا يصوغ إبداعه الروائي من معين ثقافة الصحراء.

. تتميز لغة الرواية بلغة رمزية جميلة بديعة مليئة بمفردات ذات علاقة بالصحراء، وبصور متنوعة بتنوع الأماكن والشخصيات تعبّر عن فهم الكاتب للواقع وانعكاس فلسفته الحياتية للإنسان والمجتمع الصحراوي، في فضاء الصحراء الذي صاغه بطريقة فنية أضفت عليها بعدًا جماليًا تشكلت من خلال الأشكال الموجودة في الفضاء...

© المؤلفون. مرخص بموجب Creative Commons Attribution-Non Commercial 4.0 (CC BY-NC 4.0) — يُسمح بإعادة الاستخدام غير التجاري مع نسبة المصدر
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/